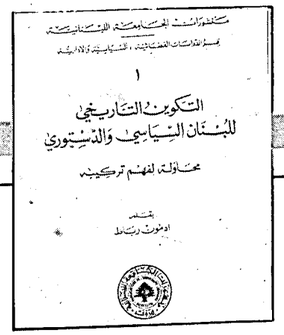

تتوفر الا في القرن التاسع عشر ٠ ولا يمكن ان نعزو وجود الكيان في ميزاته الحديثة الا الى هذا القرن ٠

ورباط في دراسته للكيان لا ينفي دور الدول الاجنبية في القرن التاسع عشر في تكوين وجه الجبل السياسي الحالي ٠ الا انه لا يعطيه اهمية كحلقة حاسمة في تكوين الكيان ٠ كما انه لا ينفي ايضا ان تكريس الكيان في دولة اتى على يد الانتداب بتضخم مفاجيء للجبل ضم فيه الساحل والمحافظات الاربع ٠ وعلى العموم يمكن القول ان تأريخه لا يبتعد عن الحقيقة التاريخية ، ولا يقع في أي لحظة في التبريرات الفلسفية والاسطورية للكيان ٠ الا ان تحليله ، ونظرا لموقفه السياسي - حيث يعود بالكيان الى أربعة قرون - يطمس العوامل الحاسمة ، من تدخل اجنبي وحماية للطوائف ، التي شكلت جذور الكيان اللبناني ٠

١ - لبنان والفينيقيين ٠

على أي حال ، رباط ليس من انصار « فينيقية » اللبنانيين ٠ ولا من انصار « لبنان الازلي » ٠ فهو اذ يبدأ بالقول انه لا يمكن فهم الكيان اللبناني دون الجبل الذي شكل محور هذا الكيان واتجبه ، فانه يسرع في الاضافة ان « لبنان » لم يكن في العهود القديمة الا تسمية جغرافية لجبل تكسوه غابات كثيفة ، وهو بذلك اسم شبيه بجملة اسماء قديمة لمناطق مجاورة ٠ أما حول اسطورة الفينيقيين (١) ، أي الكنعانيون الذين بنوا مدنهم على طول الساحل السوري - وليس اللبناني فقط - فينفيها مجرد عرض تأريخي للغزوات التي تعرض لها الساحل اللبناني والسوري من اشوريين وبابليين وفرس وسلاجقة ورومان وبيزنطيين ٠

بدأت هجرة الموارنة - وهم سوريو الاصل - الى لبنان الشمالي في النصف الثاني من القرن السابع ، أي بعد الفتح الاسلامي وسقوط سوريا في يد الفاتحين (٢) ، فانضمت اليهم التجمعات المسيحية الصغيرة الموجودة (٣) ٠ من ثم ، تقدم المسيحيون في القرون اللاحقة نحو مناطق الوسط في كسروان والمتن والشوف ، وبعدها الى الجنوب أما الطائفة الدرزية - وقد تشكلت حول الخليفة الفاطمي الحاكم الذي بشر باسم الراهب درزي - فانطلقت من وادي التيم كي تنتشر فيما بعد في مناطق الوسط ، وخاصة في الشوف ٠ وكان طابع لبنان درزيا في تاريخه ٠

هذا عن مجيء الموارنة والدروز الى جبل لبنان وتوزعهم الجغرافي فيه ٠ وقد انضمت اليهم فيما بعد تجمعات من الشيعة وحتى من النصيريين والاسماعيليين ٠

٢ - الجبل والصليبيين ٠

أما عن الحقبة الرئيسية في تاريخهم قبل الامارة الاقطاعية ، فهي دون شك فترة الحملات الصليبية وما تبعها من تحديد مصير اهل الذمة والشيع الخارجة عن الاسلام ٠

شكلت الحملات الصليبية الاصطدام الاول بين لبنان والغرب وقد اتسمت علاقاتهم على أثرها بالحذر والتوتر ٠ انطلقت الحملة الاولى في ربيع ١٠٩٧ بجيش يقارب عدده ١٥٠,٠٠٠ رجل ٠ وكانت في ٧ حزيران ١٠٩٩ أمام المدينة المقدسة ٠ سقطت المدينة في ١٥ تموز بعد شهر من الحصار ٠ واندفع الجنود وهم يصرخون « هذه مشيئة الله » لارتكاب افظع المجازر التي عرفها التاريخ ، فابادوا سكان المدينة باجمعهم بما فيه الاطفال والنساء ٠

دعم الموارنة الصليبيين في حملاتهم ضد الاسلام ٠ وعددوا الصلات السياسية والثقافية والدينية معهم ٠ فانضموا الى كنيسه روما في الحقبة نفسها ، في القرن الثالث عشر ٠ اما الطوائف المسيحية الشرقية الاخرى ، فكانت تقيم العلاقات مع الافرنج ، وحالها في ذلك حال الشيع الخارجة عن الاسلام ، دون ان تصل هذه العلاقات كلها الى المستوى التي وصلت اليه مع الطائفة المارونية ٠

انتصر صلاح الدين الايوبي على جيش الصليبيين في حطين في ٣ حزيران ١١٨٧ وحرر القدس ٠ وقد انجز السلطنة المماليك فيما بعد الحرب ضد الصليبيين واجلوهم نهائيا عن عكا في ١٨ أيار ١٢٩٥ ٠

اثرت الحملات الصليبية بشكل بالغ على مصير أهل الذمة والشيع الخارجة عن الاسلام بشكل عام ، ومصير الطوائف التي تعيش في الجبل بشكل خاص ٠ وفي سنة ١٢٨٣ ، تسلق جيش السلطان قلاوون الجبل ودمر بشري واهدن وحدث الجبة كما ارتكب المجازر بحق سكانها ٠ وقد فر على أثر هذه الحملة التأديبية الوف الفلاحين الى قبرص حيث لا تزال قراهم موجودة ٠

في الوقت نفسه ، كان الاضطهاد شرسا جدا بالنسبة للشيع الخارجة عن الاسلام وقد أصدر القانوني ابن تيمية فتوى بحقهم تعتبر مقامهم ادنى من مقام اهل الذمة وتعتبر الجهاد ضدهم واجبا دينيا ، وكانت الحملات الرئيسية ضد الجبل ، أي ضد الشيعة والدروز والنصيريين والموارنة الموجودين فيه حملات كسروان (١) في سنوات ١٣٠٤ ، ١٣٠٦ و ١٣٠٧ في ايام السلطان الناصر ٠

ووقعت المعركة الرئيسية في صوفر حيث هزم جيش الجبل المكون من ٤٠,٠٠٠ عنصر ، ومعظمهم من الدروز يقودهم آل مزهر وآل ابي اللمع ٠ ودمرت قرى الجبل كما ابيد سكانها ولم يبق للنصيريين من اثر فيه ٠ على أثر هذه المعركة ، منحت المنطقة ما بين طرابلس وبيروت بعد أن افرغت تقريبا من سكانها ، اقطاعات لثلاثمائة عائلة سنية تركمانية ، وقد حكم هؤلاء من حينه الطوائف التي بقيت في الجبل من مسيحيين ودروز وبعض الشيعة ٠

في هذه الاثناء ، كان موارنة كسروان قد انجزوا تعريبهم الكامل بقيادة مقدميهم ورهبانهم ٠ وكانوا ، حتى القرن الثالث عشر يتكلمون اللغة السريانية ٠

بذلك ، كانت الصورة التي يقدمها جبل لبنان في بداية تحرك العثمانيين صورة شعوب عربية ، تتوزعها طوائف مختلفة وتشملها شبكة اقطاعية مكونة من بعض العائلات الرئيسية في كل طائفة تتوجها ادارة الدولة السنية ٠

٣ - الامارة الاقطاعية ٠

يجعل رباط من هذه الفترة التي تمتد من عام ١٥١٦ الى عام ١٨٤١ فترة تجسد الكيان اللبناني ، ويستند في حكمه هذا الى الاستقلالية الادارية التي تمتع بها الجبل في عهد الامارات ٠

كيف نشأت هذه الاستقلاليه الاداريه وماذا تعني الامارة بالتحديد ؟

يؤرخ رباط للامارة وفقا لنهجه التاريخي العام ، فيبين اصولها التاريخية التي تتعدى جبل لبنان لتشمل جميع الدول الاسلامية الناطقة باللغة العربية ٠ والامارة مؤسسه عربيه قديمه نابعه من السلطة التي يتمتع بها القائد أي الامير ٠ وهي تتوج غالبا شبكة من العلاقات الاقطاعية تدرجت في الجبل من أمير الى مقدم وشيخ و عوام ٠ والاقطاع - الكلمة مشتقة من فعل اقطع - يعني في بلادنا نمطا من الممارسة للسلطة عرف منذ تدهور العباسيين ، أي منذ فترة القرن الحادي عشر ٠ وقد درجت من حينه السلطة المركزية على اقتطاع جزء من أراضيها وتسليم ادارتها الى موظف كبير يستلم شؤون الحكم فيها ، دون ان يكون له حق التشريع ومقابل ضريبه يدفعها كل سنة للسلطه - عرفت باسم الميري في الجبل ٠ هذه الممارسه للحكم بقيت بالضرورة منوطه بالسلطه المركزية واهوائها التي يحق لها في أي وقت استعادة الاراضي التي اقتطعتها ٠

أما بالنسبة للجبل ، فقد تمتعت طوائفه في فترة المماليك بنمط من الحياة المستقلة نظرا لبعد الجبل ووعورته ٠ انما لم يعرف مؤسسة محلية للسلطة - الامارة - كالتي عرفها في عهد العثمانيين حيث كرس السلطان سليم ، أمام فخر الدين الاول الممتثل أمامه ، استقلالية الجبل الادارية ، وقد تمتعت من حينه اسرة المعنيين بنوع من السيادة المعنوية على العائلات الاقطاعية الاخرى ٠ وتحدد منها الامراء اللبنانيون ٠ فأصبحت الاستقلالية الادارية بظل الامارة عرفا عاش عليه الجبل مئات السنين ٠ الا انها لم تكرس في أي نص وقد احتفظت دائما السلطه المركزيه لنفسها بحق القيام بحملات تأديبيه اذا لم تعجبها سياسه الامير الحاكم ٠ وكانت هذه السلطة تحيط بالجبل من جميع جهاته ، متمثله بباشوات صيدا وطرابلس ودمشق ٠

من هنا ، يستعمل رباط تعبير « استقلالية ادارية » ولا يتحدث عن « استقلالية سياسية » ٠ فهي اداريه بمقدار ما تبقى وظيفة المقاطعجي والامير ادارة شؤون الجبل - فتنسج بذلك وتنمي شخصيته الاجتماعية المميزة - دون ان تستطيع الوصول الى الحيز السياسي بسبب موقع الجبل المحاط بولايات عثمانية من جميع جهاته يقيم معها صلات اقتصادية حيوية - المرافيء بالنسبة للساحل ومخزن الحبوب بالنسبة للبقاع - وصلات سياسية يشرف فيها الوالي ، بحكم تمثيله للقوة المركزية ، على سياسة امراء الجبل ٠ من جهة اخرى ، لا نستطيع التحدث عن استقلالية سياسية للجبل في حين لا يتمتع بالوحدة السياسية وتتوزع السلطة فيه بين الامير والمقاطعجي الذين ينازعونه والذي لا تتعدى سيادته عليهم الطابع المعنوي ٠ الا ان المشروع السياسي - اذا جاز التعبير - كان دائما موجود يبتدىء - في الجبل كما في الامارات والولايات الاخرى - بمحاربة الامير للاقطاعيين الذين ينازعونه بهدف توحيد السلطة وينتهي بالحملات العثمانية التي تواجه بمقاومه يائسة يضمحل بعدها المشروع السياسي ٠

وتجدر الاشارة الى بعض المميزات الخاصة التي ارتداها الاقطاع في الجبل ، بفعل تعدد الطوائف ٠ ذلك ان التعدد الناجم عن وجود تجمعات دينية واجتماعيه مختلفة في الجبل تحكم كل منها عائلاتها الاقطاعية الخاصة سمح للفلاح اللبناني بالاحتفاظ بحريته الفردية وبحقه في الملكية الخاصة ٠ وتفسر هذه الحرية حركة الهجرة الدائمة التي اتت بعائلات مارونية بكاملها في القرن الخامس عشر والسادس عشر من الشمال الى كسروان والمتن والشوف ٠ وقد ارتبطت بذلك الاقطاعية في الجبل بتعدد الطوائف الموجود فيه، ونسجت هاتان الظاهرتان معا بنيته الاجتماعية ٠

٤ - امارة فخر الدين ٠

شكلت امارة فخر الدين الثاني مشروعا سياسيا ناجحا طيلة ثلاثة واربعين عاما ٠ وانتهت على أثر حملة عثمانية تأديبية قادها أحمد كجك باشا في عام ١٦٣٣ ٠ ما هو الخيط الذي يربط هذه الامارة بلبنان الحديث فيجعل منها - بالنسبة لرباط - بداية وجود الكيان السياسي اللبناني ؟

يجيب رباط على هذا الموضوع بثلاث نقاط : حققت الامارة « الحدود التي رسمتها الطبيعة » (١) للبنان (أي الساحل بالاضافة الى الجبل والبقاع) وجمعتها في اطار وحدة سياسية مستقلة حيث زرعت أسس الدولة الحديثة ٠

حقق فخر الدين الوحدة السياسية من خلال التحالفات التي أجراها مع معظم العائلات الاقطاعية الكبرى في مختلف انحاء الجبل ومن خلال القضاء على اعدائه اللدودين ، خاصة آل سيفا ٠ وقد اتبع في نمط حكمه سياسة اقتصادية ، اجتماعية وادارية تهتدي - « دون مغالاة » (٢) يؤكد رباط - بمبادىء الدولة الحديثة ٠ فأمن الازدهار الاقتصادي من خلال تطوير الزراعة والتجارة ، وكرس حرية المعتقد والمساواة بين الطوائف (٣) مما شجع حرفيي وفلاحي الشمال الموارنة على الانتقال الى مناطق الشوف والمتن ٠ أيضا ، أرسى الامن والعدالة في امارته ٠ تعدت اذا ممارسة للامير للحكم ادارة شؤون الجبل وفق منطق المصالح المحلية الضيقة ، وأدت عمليا الى تخطي السلطنة العثمانية في بعض المجالات اذ أقام الامير صلات مستقلة مع الغرب كما انه حارب والي دمشق ، مصطفى باشا ، وانتصر عليه ٠

هل يعني ذلك ان الامير المعني فكر في اقامة دولة لبنان المستقلة عن السلطة العثمانية ؟ رباط يجيب بالنفي ٠ ولا توجد أية وثيقة تاريخية تؤكد طموحات من هذا النوع ٠ أما حول وجود الكيان اللبناني السياسي منذ هذه الفترة ، فتأكيد رباط على الموضوع يبدو مغالاة اذ ان الميزة الاساسية لسياسة الجبل - وجود طوائف متناهرة « تطلب » المساواة - لم تعرف الا في القرن التاسع عشر ٠ أيضا ، وحتى اذا افترضنا ان الامارة حققت فعلا « الحدود الطبيعية » للبنان ، فان فترة اربعين عاما غير كافية لتطبع هذه المناطق بطابع مميز بدليل أن « حركات » القرن التاسع عشر اقتصرت على الجبل ولم تتعدى حدوده ٠

(١) الذي كان يشمل حينئذ المتن وصنين وجبل الكنيسة ٠

فخر الدين لم يطمح الى بناء دولة لبنان المستقلة وسياسة الامير بشير انهت استقلالية الجبل

(١) ص ٠ ١٧٥ ٠ وتجدر الاشارة هنا انه في معظم الاحيان تعدت هذه الحدود لتشمل الجليل واجزاء من الاراضي السورية ٠

(٢) ص ٠ ١٧٤ ٠

(٣) التي ترتدي معنى مختلف تماما عن معناه الحديث ٠ وهنا يسحب رباط الواقع التاريخي الحالي على الماضي ٠

البقية في العدد القادم